ظلال الحرب.. تضليلات التغطية بحق النساء والأطفال في اليمن

ما قصة الطفل الذي كان الشهيد نبيل القعيطي يهتم به؟

«الأمناء» عن «مؤسسة الصحافة الإنسانية» بتصرف:

عرضت محطة للوقود بمحافظة مأرب في يونيو 2021 لقصف صاروخي أدى إلى سقوط العديد من الضحايا المدنيين بينهم طفلة بعمر 5 سنوات تدعى «ليان»، حسب وكالة «سبأ» الرسمية.

وزيرا الصحة والإعلام بحكومة المناصفة، قاسم بحيبح ومعمر الإرياني، تداولا رفقة ناشطين صورة للطفلة التي قضت متفحمة جراء اشتعال النيران، أثارت ردودًا واسعة على صفحات السوشيال ميديا، بين إلقاء التهمة على الحوثيين وبين النفي من قبل هذه الجماعة.

على إثر الحادثة نشر حسين العزي، وهو نائب وزير خارجية مجلس الحكم في العاصمة اليمنية صنعاء الخاضعة للجماعة الشيعية، تغريدة له في حسابه على «توتير»، أن الصورة مفتراة حتى على النظام السوري منذ 2018، حد تعبيره، ما أدى إلى الرد من قبل ناشطين موالين للجانب الحكومي بنشر صور ومقاطع فيديو للطفلة ذاتها، مؤكدين مقتلها بالقصف المميت ضد محطة للمحروقات، في سلسلة دحض متسارع لمزاعم نائب خارجية الحكومة غير المعترف بها بصنعاء.

تابع فريق التحقيق تطورات القصة التي أبرزها مغردون تمكنوا من كشف واقعة تضليل قام بها حوثيون اقتطعوا جزءًا من مقال مترجم نشرته منصة «أورينت» نقلًا عن مجلة «تابليت» حول مآسي الحرب بسوريا، قبل إرفاقه بصورة «ليان» ونسبته لمنصة «شبكة شام السورية»، كنوع من تثبيت مصدر يمكن الإحالة إليه وبالتالي نفي ارتباط هذه الصورة بما حدث بالمحافظة العريقة، غرب صنعاء.

منصة «صدق» المتخصصة في التحقق من المعلومات والأخبار المضللة والإشاعات، أشارت من جهتها إلى وقوع العزي بفخ الفبركة، فيما أكدت أن الصورة المأساوية هي في الحقيقة من مأرب، قبل أن يقود هذا المسؤول الحوثي ذاته عبر تغريدة له إلى الاعتراف بتزييف الصورة واعتذاره عن نشرها، فيما عاد إلى التأكيد أن «هذا لا يعني بالضرورة أن تكون نتيجة لصاروخ حيث لا يتوفر أي دليل صحيح على ذلك»، ضمن محاولة مستمرة لنفي مسؤولية الجماعة التي قالت هي الأخرى أنها استهدفت مقرًا عسكريًا قريبا من محطة المحروقات.

يتابع الفريق هذه القصص بسياق تدقيق الأخبار المضللة المتعلقة بضحايا الحرب والألغام من النساء والأطفال وكبار السن باليمن خلال الفترة (2015 - 2021)، مغطيًا ثمان محافظات هي «عدن، وأبين، والضالع ولحج» إلى جانب «الحديدة، وتعز، ومأرب والجوف».

مدنيون في مرمى الاستهداف

على صعيد مشابه، تعرض سجن للنساء بمحافظة تعز، لقصف مميت 5 أبريل 2020، أدى إلى مقتل خمس سجينات وطفلتين وشرطية، وجُرح تسعة مدنيين بينهم ست نساء وطفلتان ومدني. حسب تقرير صادر عن منظمة مواطنة لحقوق الإنسان صدر بالشهر ذاته.

وسائل إعلام تابعة لجماعة الحوثيين نشرت نفي متحدثهم العسكري بشكل قاطع عن وقوفهم خلف القصف، غير أن التقرير السنوي الثامن لـ«اللجنة الوطنية للتحقيق في ادعاءات انتهاكات حقوق الإنسان في اليمن»، يوليو 2020، تضمن تسمية الحوثيين «الجهة المسؤولة عن قصف السجن»، وهو ما جاء متطابقًا في تقرير منظمة مواطنة.

يتصدر الاستهداف والقصف العشوائي قائمة أنواع الانتهاكات التي تسببت بإعاقة أكثر الضحايا المدنيين من النساء والأطفال وكبار السن، إضافة لتجنيد الأطفال والألغام والعبوات الناسفة في الثمان المحافظات المستهدفة التي بلغت إحصائيات معاقيها من جرحى الحرب أكثر من 9 آلاف شخص.

صدمة!

في 5 يوليو 2016 خرج عمار ياسر الصبري من منزله في قرية العياني بمحافظة إب، لجلب احتياج لوالدته من مكان قريب. وبينما توقف لبضع دقائق لمشاهدة أصدقاء له وجدهم يلعبون بالطريق، دوّى انفجار عنيف لقذيفة صاروخية، «قُتل ثمانية من أصدقائي وأصبتُ في رجلي»، يقول عمار.

يتذكر: «كان ذلك قبل العيد بيوم واحد. صديقي سليم أصيب بجروح بالغة. حرمنا الحادث أن نمارس حياتنا كباقي أطفال العالم».

حين نُقل الصبري ذو الـ10 سنوات إلى المستشفى كان فاقد الوعي قبل أن يفيق ويسأل كل من بقربه: «أين رجلي؟»، بعد أن تعرضت إحدى رجليه للبتر، ولم يجبه أحد! «صدمت عندما وجدت أصدقائي مصابين، كانت مشاهد الدماء تغطيهم».

يروي عن رحلة علاجه إلى مدينة عدن: «ذهبت إلى مركز الملك سلمان. قدموا لي طرفا اصطناعيًا، لكنه لم يتماش معي. قام أبي بتسفيري إلى المركز العربي للأطراف الصناعية في سلطنة عُمان. تمكنت من استخدام طرف جيد، الحمد لله مشيت به».

بصوت حزين مضى بالقول: «أخذت الحرب منّا كل شيء، دمرت بلادنا. لا يزال الأطفال والنساء يقتلون. تسببت الحرب بوفاة كثيرين ونزوحهم»، يأمل اليوم أن «تتوقف الحرب لينتهي الألم وتعود حياة الناس من جديد وأحسن مما كانت عليه».

لم يعد عمار يقوى على اللعب بعد الإصابة، لكنه يطمح في «أن أكمل دراستي حتى أصبح دكتورًا في المستقبل ولو بقدم واحدة».

مدير مكتب حقوق الإنسان بصنعاء، المقيم بمأرب، فهمي الزبيري قال إن «الوضع كارثي بسبب جماعة الحوثي المسلحة والجريمة الأكبر تتمثل في استهداف الآمنين والمدنيين»، مشيرًا إلى «أكثر من 350 صاروخًا باليستيًا على مأرب خلال الحرب إضافة إلى الكاتيوشا ومختلف المقذوفات التي تستهدف المدنيين وينتج عنه قتل النساء والأطفال».

من جهتها، تقول منظمة الأمم المتحدة للأمومة والطفولة «يونيسيف» في مذكرة إحاطة عن أوضاع الأطفال باليمن، أكتوبر 2021: «لقد وصل الصراع باليمن للتو إلى معلم مخزي آخر: فقد قُتل أو شوه 10 آلاف طفل منذ بدء القتال بمارس 2015؛ أي ما يعادل أربعة أطفال كل يوم».

وبلغ عدد المصابين من الأطفال بالمحافظات الثمان خلال الفترة منذ سبتمبر 2014، حين استولى الحوثي على السلطة بصنعاء حتى ديسمبر 2018 ما يصل إلى 3373 طفلًا، تسبب القصف بـ2221 حالة، والرصاص 663، فيما توزعت بقية الإصابات بين القنص والألغام والمواجهات، وقد حُمّل الحوثي مسؤولية 3262 إصابة منها، وفق ما تضمنه تقرير «اغتيال البراءة» الذي يغطي الانتهاكات الستة المرتكبة من قبل أطراف النزاع بحق الأطفال باليمن، والصادر عن التحالف اليمني لرصد حقوق الإنسان، تأسس بيناير 2015 لعديد منظمات مجتمع مدني.

كاتيوشا اللا اهتمام!

كان الطفل محمد يحيى إبراهيم ذو الـ15عامًا قد نزح مع عائلته من «عزلة الهجرة» بعمران إلى الجوف، قبل أن يفقد يده اليمنى وعينه اليسرى في 14 ديسمبر 2019 بفعل شظايا صاروخ كاتيوشا سقط في حوش منزله في منطقة الغيط التي استقبلت نزوحهم.

شاكيًا الإهمال «لم أتلق دعمًا من أي جهة حكومية أو غير حكومية طيلت فترة الإصابة»، يقول. وهو الآن لا يقوى على إمساك القلم بيسراه فيما يهوى الرسم ويكتب جيدًا، وما زال يعاني حتى لدى تناول الأكل.

ويبلغ عدد المعاقين جراء الحرب والألغام في الجوف حتى عام 2021 (670) معاقا، وفقًا لرئيس جمعية المعاقين في المحافظة يوسف نبهان الحجوري.

طاله في حضن أبيه!

منذ اندلاع الحرب عام 2015، ظل الخطر محدقًا بالأطفال في عموم البلاد، أمام فوهة قناص أو على شرك لغم، قد تذهب حياة بكاملها أو نصف حياة تلازمهم خلالها المعاناة كما حدث للطفلين زايد ومنصور اللذين فرقهما المكان قبل أن تجمعهما الإصابة.

زايد خالد سالم، 9 أعوام، لم يكن يعلم أن لغمًا قد زُرع بالقرب من منزله بلحج، أفقده القدم اليسرى في 9 يونيو 2015، فيما تسببت الإصابة بإعاقته بالقدم الأخرى.

«سافرت على نفقة الهلال الأحمر الإماراتي إلى الهند لتلقي العلاج. أجريت لي عدد من العمليات الجراحية، وأنا حاليًا بحاجة للعودة مجددًا لاستكمال العلاج هناك وفق قرار الأطباء»، يقول «لكن إمكانيات أسرتي لا تسمح لذلك».

منصور مروان، قرابة العشر سنوات من عمره حاليًا، أصيب برصاص قناص في عامه الثاني، 2015، عندما نزحت أسرته من مديرية المعلا إلى مديرية دار سعد في العاصمة عدن، حسب رواية والده الذي اتهم جماعة الحوثيين بالوقوف خلف الحادثة.

وفقًا لمروان، الأب، أصابت الطلقة الفخذ الأيمن لطفله منصور وعمره عام ونصف بينما كان في حضنه أثناء مروره الشارع المجاور لمنزل العائلة، وقد تضرر الأب هو الآخر أن نفذت الطلقة إلى بطنه.

بُترت رجل منصور حينها، وبعد مرور سبع سنوات من الإصابة حصل على ثلاثة أطراف صناعية من جهات مختلفة خلال فترة نموه. يقول والده إنه بحاجة إلى طرف صناعي كل ستة أشهر نتيجة النمو «نواجه صعوبة في الحصول على ذلك»، يضيف «كان المصور نبيل القعيطي (قُتل على يد مجهولين في العاصمة عدن يونيو 2020) أكثر من يهتم بمنصور ويدعمه في نقل معاناته، فيما لم يصل إلينا أحد بعد اغتياله».

صالح علي المنتصر، وهو مدير التخطيط والتدريب بالمركز التنفيذي للتعامل مع الألغام بعدن، أوضح لفريق التحقيق أن إجمالي الضحايا الذين رصدهم المركز خلال الفترة منذ 2016 حتى 2021 بلغ 3296 معاقًا من الجنسين بمحافظات (عدن، لحج، أبين) إلى جانب تسعة معاقين من الضالع يسكنون بعدن، مضيفًا «عدد المعاقين الأطفال والكبار من الجنسين بلغ خلال الحرب 1036 بعدن، و1322 بلحج».

أنْ لا تشرق الشمس من جديد!

في مأرب، التقينا راوية حسين الخريصي، 30 عامًا، التي نزحت عام 2015 من عزلة آل عمر سعد بمديرية نهم قبل أن تعود إلى منزلها على إثر انسحاب مقاتلي جماعة الحوثي حينها عام 2016، والذين عاودوا الاستيلاء على المنطقة بوقت لاحق.

لدنو غروب الشمس ذهبتْ لإعادة أغنامها إلى الزريبة التي تبعد عن باب المنزل بحوالي مئة وعشرين مترًا تقريبًا فـ«شعرتُ أن شيئًا قذف بي إلى أعلى، وصرخت. كانت القرية خالية من السكان إلا قليلًا من العائدين الذين كنا من أولهم».

وحين هرع إليها ولدها الأكبر محمد، 21 عامًا، تروي باكية «قبل أن يصل إليّ انفجر به لغم آخر ومات في الحال. كانت لحظة لا يصف قسوتها كلام».

تعيل رواية أربعة أبناء بينهم فتاتان، وهي أرملة. أسعفنها نسوة من القرية إلى المستشفى، قبل انتشال جثة ولدها. وقد بُترت رجلها اليمنى أعلى الركبة، وأجريت لها ثلاث عمليات في رجلها اليسرى على وقع الإصابة المروعة.

«قبل الحادثة كنت أستطيع المشي والعمل ورعي الأغنام. كنت أجلب الماء من مسافة بعيدة لخلو منطقتنا من مشاريع المياه. كنت أجلب الحطب أيضا من أماكن بعيدة»، تقول «بعد الإصابة لم أعد باستطاعتي حتى سقاية نفسي الماء».

مخنوقة الذكرى تضيف: «انفجار اللغم بي واستشهاد [مقتل] ابني أمام عينيّ أصعب موقف في حياتي لم يغادر مخيلتي ولن يغادر ما حييت».

أكد مُدخل بيانات مركز الأطراف الصناعية والتأهيل في محافظة مأرب قلب الدين صالح مهيب أن المركز استقبل عديد حالات الإعاقة، فيما تفاوتت نسبة الإعاقة من فئة إلى أخرى «الأطفال 5%، النساء 10% والرجال 50% من إجمالي المعاقين»، مشيرًا أن عدد المعاقين يزداد عن 1500حالة، منهم 15% من محافظة مأرب، و85% من النازحين إليها.

يقول عبدالعليم باعباد، دكتوراه بالقانون الدولي العام، إن الضحايا من الأطفال والنساء هم الطرف الأضعف في كل صراع فهم معتدى عليهم بأماكنهم ومحل سكناهم ويتعرضون للقصف أو الهجوم من الأطراف بشكل عام وإن كانت غير مقصودة، حد تعبيره.

أن تلجم الفرح رصاصة قديمة!

بينما كانت نجاة محمد، 27 عامًا، تساعد عائلتها لتحضير وليمة الفرح في عرس أخيها الأصغر، طالتها طلقة دوشكا بفعل اشتباكات على مقربة منهم في إحدى قرى محافظة تعز، جنوبي غرب البلاد، حوّلت العرس إلى فاجعة.

«سمعتُ صوتًا قويًا ثم أغمي عليّ. لاحقًا عرفت أنه لطلقة دوشكا»، تقول. وكانت نجاة قد وصلت رفقة زوجها وطفلتيها قادمة من الحديدة المجاورة، فيما كانت المواجهات محتدمة في أجزاء واسعة من تعز بين القوات الحكومية والحوثيين.

على نحو من الحنين إلى ذكرى قريبة «كنت متزوجة، أعيش حياتي مع زوجي وطفلتي على ما يرام»، قبل أن يخالط صوتها الأسى «بعد إصابتي تخلى عني أقرب الناس إليّ».

اخترقت طلقة رشاش سوفياتي قديم عيار 12.7مم، فخذها الأيمن وأجزاء من الفخذ الآخر، لتبتر أوردة وشرايين وأعصاب. تضطرب حركة يدها بين مكان إصابتها وفمها، ببكاء تسرد كيف ظلت تنزف «فترة ولم يتجرأ أحد من أهلي على إسعافي؛ جراء عمليات القنص، فالناس في منازلهم وأي حركة تظل هدفًا للإطلاق، قبل أن تتشجع أمها وجارتها «على الخروج إليّ وحملي إلى داخل المنزل»،

تضيف «أجريت لي إسعافات أولية وقت صلاة الجمعة. ذهبت أمي للبحث عمن يسعفني»، بينما كان الناس حبيسي منازلهم لتفادي عمليات القنص والمواجهات «وبعد جهد جاء أحدهم بحافلة. أسعفوني للمستشفى».

وحين علمت أن رجلها على وشك البتر، أضربت عن الطعام وأصبحت حياتها يأسًا كفقدان الأمل. ضاعف من حزنها أن تتذكر طفلتين بحاجة للرعاية.

«أكثر ما أتعبني وأثّر بي فوق قهري على نفسي أن تصبح بناتي بحالة من العذاب دون أي ذنب»، أخذتْ نفسًا طويلًا عوض الحديث.

يوضح مدير مكتب الشؤون الاجتماعية والعمل بتعز عبده علي محمد «لدينا معوقات مادية، إذ لا يكفي الدعم لكل ضحايا الحرب»، مع تزايد أعدادهم فـ«ما يأتي من المنظمات المحلية والدولية والحكومية قليل جدًا لا يلبي الخدمة لهذه الشريحة».

مضت سنتان تقريبًا على إصابة نجاة، وإلى الآن لم تستطع التحكم في رجليها أو المشي عليهما، إذ لم تتلق علاجًا يعينها على تحمل جزء من الإعاقة. وقد حمّلتْ أطراف الصراع باليمن مسؤولية المعاناة التي يكابدها المدنيون بكل المحافظات.

المركز الوطني للتعامل مع الألغام بتعز وثق 2473 حالة إعاقة بإحصاءاته للألغام والمواد المتفجرة ضمن نطاق المديريات الواقعة تحت سيطرة الحكومة، منها 1658 حالة وسط الرجال و373 من النساء، وكانت ثاني أكبر إصابة بالإعاقة وسط الأطفال بـ442 حالة، حسبما قاله إبراهيم سنان، نائب مدير المركز.

مليون لغم محتمل

رغم توقيع الحكومة اليمنية على معاهدة حظر الألغام عام 1998 إلا أن انتشار عمليات زراعة المتفجرات هذه، والملقاة حصرًا على عاتق المتمردين الحوثيين، تتغلب كل مرة على جهود النزع والإتلاف.

وفق تقرير الشفافية الذي قدمه اليمن عام 2017، وهو التقرير الأخير من نوعه، «هناك 569 منطقة ملوثة بالألغام تغطي مساحة 2323 كيلومتر مربع.

لم تقف الأرقام عند هذا المستوى، إذ يرجح مدير التخطيط والتدريب بالمركز التنفيذي للتعامل مع الألغام صالح علي المنتصر ازدياد استخدامها بمحافظات تعز والحديدة ومأرب والجوف حيث ما زالت جبهات الحرب المشتعلة، مشيرًا على وجه التحديد إلى أكثر من مليون لغم بأنواع وأشكال مختلفة يُتوقع زراعتها وفق المؤشرات والنتائج العملية لفرق النزع الميدانية.

وينشط البرنامج الوطني للتعامل مع الألغام في 11 محافظة، منها ثمان محافظات محور التحقيق لجانب محافظتي شبوة وحضرموت، وصعدة حيث معقل عبدالملك الحوثي، عبر أكثر من 60 فريقًا يتبعون المركز، منها ثلاث فرق نوعية يجري تدريبها باستخدام الكلاب.

وتبلغ المساحة المطهرة بجهود البرنامج الوطني 30 ألف كيلومتر مربع تقريبًا. «وهي مساحة هائلة»، بحسب المنتصر. فيما يبلغ إجمالي المنزوع 638,732 من الأجسام الخطرة ما بين مخلفات الحرب والألغام المضادة للأفراد والدبابات والعبوات الناسفة، مؤكدًا «يعقب النزع عمليات التخلص منها بمواقع محددة ومهيأة مسبقًا».

وبالإضافة إلى البرنامج الوطني للتعامل مع الألغام باليمن، يعمل المشروع السعودي (مسام) منذ يوليو 2018 على نزع الألغام من المناطق التي تتمكن الحكومة اليمنية باستعادتها من أيدي الحوثيين المتهمين الوحيدين بنصبها طيلة الحرب.

من جهته، تمكن المشروع (مسام) من نزع 289,046 لغمًا وعبوة ناسفة منذ منتصف يوليو 2018 حتى 19 نوفمبر 2021.

أسامة القصيبي، مدير (مسام)، أكد بمؤتمر صحفي عقده بالعاصمة عدن 20 نوفمبر 2021، «أن إجمالي المساحة التي تم تطهيرها بلغت 28 مليون متر مربع في مختلف المحافظات».

أضاف: لدى المشروع فرق هندسية ثابتة تعمل بعديد المناطق اليمنية، بالإضافة إلى فرق متحركة تعمل وفقًا للحاجة بالمجال الفني والمسح والانتزاع المباشر.

وفقًا لتحالف رصد في تقريره «القاتل الخفي»، وخلال الفترة من ديسمبر 2014 إلى ديسمبر 2016، بلغ إجمالي الألغام المنزوعة بالمحافظات الثمان 39,634 لغمًا، منها 26,755 مضاد أفراد و12,879 مضاد دروع.

- بلغ عدد المصابين من الأطفال خلال أقل من (5) سنوات (3,373) طفلًا
- إجمالي المساحة التي تم تطهيرها من الالغام 28 مليون متر مربع